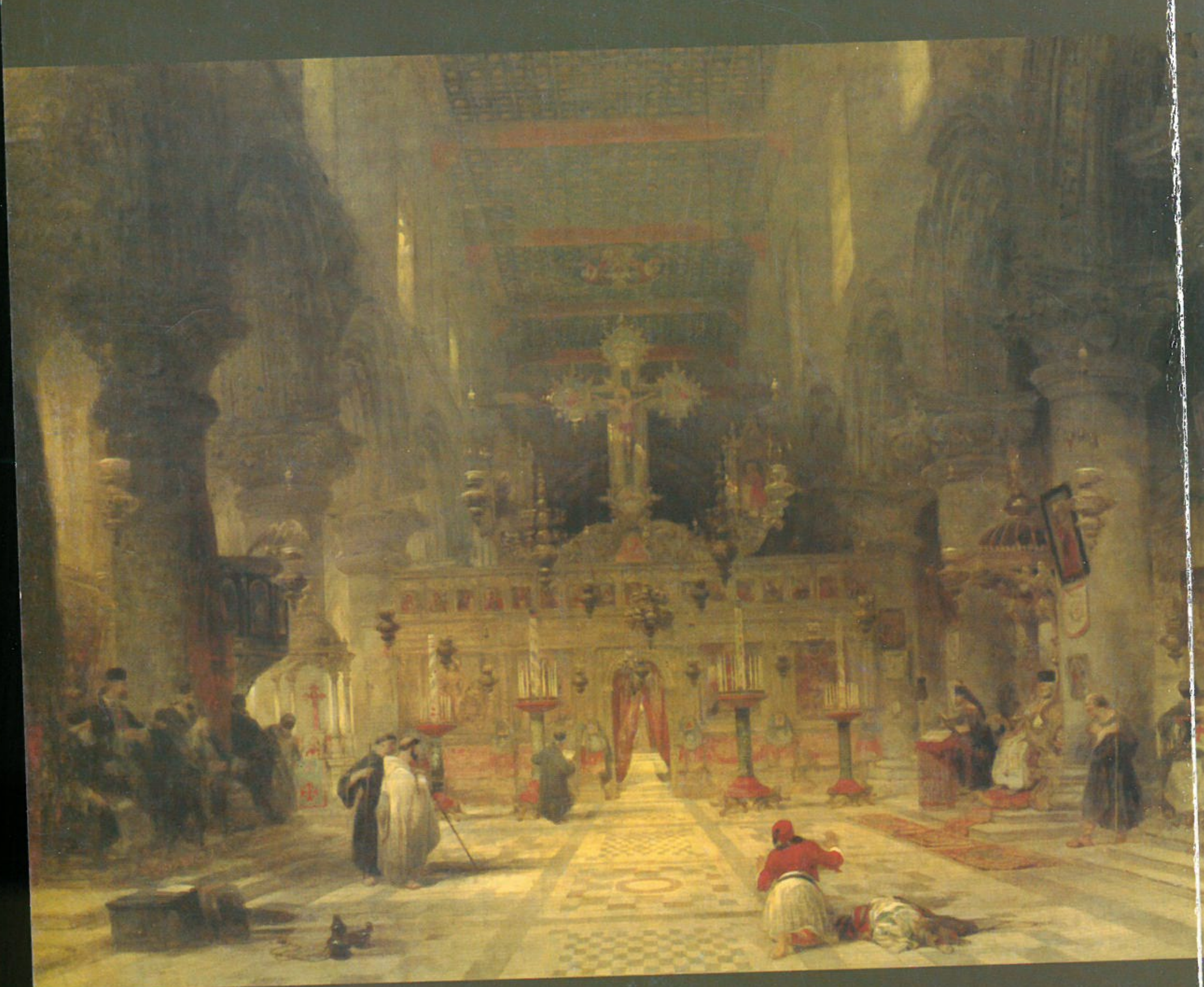
تاريخ العرب والعالم

مجلة مصورة تبحث في التاريخ العربي

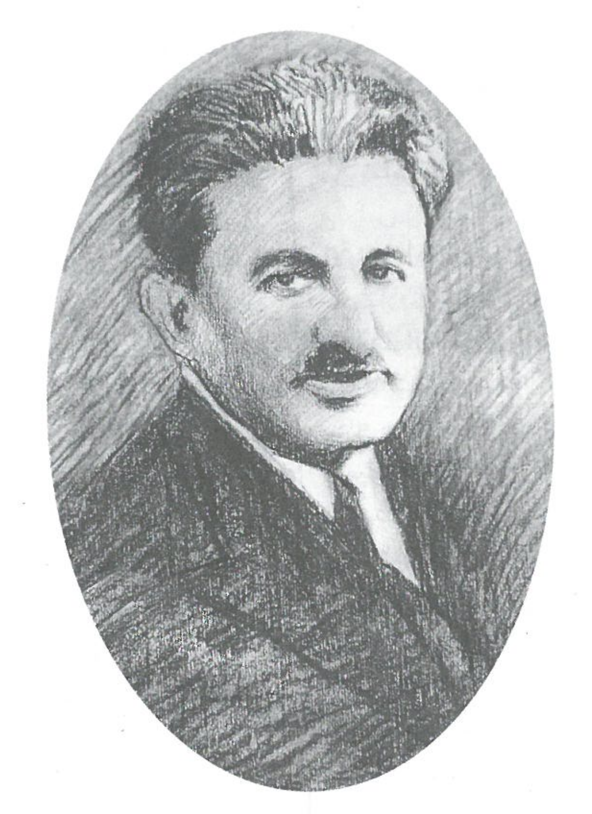
السنة الثلاثون - المجلد ٣٤ - العدد ٢٤٧ - أيلول - تشرين الأول ٢٠١٠م الموافق رمضان - شوال ١٤٣١هـ



- طرابلس الشام وبيت المقدس
- الأصول العربية للخرائط الأوروبية
- القدس مفتاح السلام في الشرق الاوسط

مع أمين الريحاني في رسائله

د. ميشال جحا



منذ تعلم الإنسان الكتابة، راح يكتب الرسائل ويتخاطب مع الآخر عبر التاريخ. في الإنجيل: رسائل القديسين (بولس، بطرس،...) يدعون الناس إلى التعبد. النبي محمد كتب الرسائل إلى النجاشي وهرقل والمقوقس وملك الفرس يدعوهم إلى الإسلام. وثقة رسائل ملوك وحكام وقادة وأدباء (مي زيادة، جبران، إخوان الصفا،...). أدب الرسائل معروف في الأدب العربي كما في سائر آداب العالم. وقد تكون الرسائل إلى الحبيبة أو أحد قريب أو صديق، أو إلى المجتمع ككل لا إلى شخص معين.

رسائل أمين الريحاني منوعة, إلى بعض أفراد عائلته, وإلى بعض أصدقائه أو معارفه من كبار رجال السياسة ملوكاً وأمراء ورؤساء حكومات ووزراء وأدباء وشعراء ورجال فكر ورجالاً عاديين طلبوا منه خدمة أو قدم لهم موعظة أو كتاباً أو محاضرة.

عدد تلك الرسائل نحو ٤٠٠ من أصل ٣٠٠٠ كتبها الأمين بالعربية والإنكليزية في ٤٤ سنة (١٨٩٦ إلى ١٩٤٠) وهي منشورة, في كتاب أصدره شقيقه ألبرت, وفق تسلسلها التاريخي.

بعض هذه الرسائل مورخ وبعضها خلى من التأريخ.

حين يكتب الكاتب مقالاته وكتبه يخاطب قراء لا يعرفهم, وعندما يكتب الرسائل يخاطب الآخرين مباشرة, لأنه يعرفهم أو هم مقربون إليه أو على صلة وثيقة به.

كتب الكثير (في مئات الكتب والأبحاث) في فكر الريحاني وأدبه ومواضيع عالجها أديباً وشاعراً وناقداً أدبياً وكاتباً مسرحياً وقاصاً ومؤرخاً ورحالةً وفناناً ورسام كاريكاتور وفيلسوفاً وسياسياً ومصلحاً اجتماعياً ومربياً وعالم آثار, لكن رسائله لم تدرس بعد.

عدد الرسائل الضخم يشير ألى صلة له وثيقة وواسعة بشخصيات من مختلف البلدان العربية, ورسائله العائلية تشير إلى عاطفته ومحبته لأهله وسؤاله عن أحوالهم واهتمامه بهم.

يعتمد الريحاني في رسائله الأسلوب المرسل, وأحياناً السجع أو الأسلوب الإنشائي المنمق, ورسائله تصور شخصيته على سجيتها.

بعض هذه الرسائل موجهة إلى أهله (والده ووالدته وأشقائه وشقيقاته وأقربائه ومعارفه) وبعضها إلى ملوك وأمراء ورؤساء (الملك فيصل الأول, الملك عبد العزيز بن سعود, الملك غازي الأول, الملك حسين, شاه إيران بهلوي, رئيس جمهورية لبنان شارل دباس, شكري القوتلي, سلطان لحج, أحمد الجابر حاكم الكويت, الإمام يحي ملك اليمن, نوري السعيد, ...). وهو راسل شخصيات عربية كبيرة (محمد رضى الشبيبي, أحمد زكي باشا, الأمير شكيب أرسلان, رستم حيدر الحاج أمين الحسيني, ...) وشعراء وأدباء كبارا (أحمد شوقي, خليل مطران, جميل صدقي الزهاوي, معروف الرصافي, بشارة الخوري الأخطل الصغير, شبلي الملاط, محمد كرد علي, جبران, ميخائيل نعيمة, بعض ادباء المهجر, مي زيادة, ماري عجمي صاحبة العروس, ماري يني عطالله صاحبة مينرفا, ...) ومستشرقين فرنسيين (لويس ماسينيون, روبير مونتاين, وجان لو سارف, المستشرق الروسي كراتشكوفسكي, ...).

أغلب الرسائل صادرة عن «الفريكة» قريته, وبعضها عن نيويورك أو أي مكان كان فيه, أو الباخرة التي كان يستغلها. أحياناً يذكر التاريخ والساعة واليوم والسنة والمكان, وأحياناً يكتفي بذكر السنة والمكان, وأحياناً يذكر السنة فقط, أحياناً لا يذكر أي تاريخ أو اسم المرسل إليه أو أنه جرى حذفه.

بعض هذه الرسائل عادية موجزة لا قيمة أدبية لها أو فكرية, مجرد شكر على هدية, أو جواباً عن سؤال. وهي على تنوعها تتناول الأدب والشعر والفن والسياسة والأجتماع والإصلاح والدين بأسلوب منطقي, جاد أحياناً, وأحياناً فيه تهكم وتندر وسخرية, ومعرفة وحكمة, وجميعها بعفوية من دون تكلف, وأحياناً يكتب بلسان الحيوانات مثل

كلبه «دجونو» أو قطته «بلوز» الذي نعاها سنة ١٩٣١، أو بلسان غليون، أو على لسان الأطفال.

تلك الرسائل عند نشرها لم تعد شخصية وخاصة بل أصبحت ملك القراء تكشف عن أهوال الريحاني وأشواقه، همومه وآلامه، كرهه ومحبته، فشله ونجاحه. وفيها آراؤه ومواقفه وجوانب من شخصيته. فهو فيها صريح وصادق لا يجامل ولا يداهن.

أولى هذه الرسائل موجهة من كانساس سيتي إلى والده في ٤ حزيران ١٨٩٦. لغتها مزيج من عامية وفصحى يخبر فيها والده عن رغبته في مزاولة مهنة التشخيص (التمثيل)، ويصف واقع الولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر بأن شغل ومثل شغل البورصة: يخسر الإنسان دراهمه برمشة عين، ويكسبها برمشة عين.

كان الريحاني يشكو من صعوبة العربية فكتب سنة ١٩٠٦ إلى خليل مطران يسأله أن يهديه إلى كتاب لدرس النحو غير «بحث المطالب» وابن عقيل. في رسائله الأولى كانت لغته ضعيفة وفيها أخطاء لغوية، قبل أن يتمكن من العربية لذا رغب في مراجعة كتب اللغة لتساعده على تحسين لغته.

وفي تلك السنة كتب إلى محمد كردي علي: «كفاني من النحو مشقة وعذاباً. انتهكت قواي وتمزقت أحشائي بين الكسائي والفراء وسيبويه وابن مالك والمبرد ونفطويه».

وكتب إلى جرجي نقولا باز: «والله حينما تمر في مخيلتي فاء السببية يغشاني صداع شديد، وحينما أفكر في الفرق بين المفعول فيه والمفعول معه يحل المغص بي وفي ومعي وعلي، فأدعو لو عفاني الدهر من لغة حمير ولغة تميم، ومذاهب البصريين والكوفيين».

وكتب إلى نعوم مكرزل: وقعت كما تعلم بين لغتين بل بليتين. فإن كانت اللغة الإنكليزية في دمي، فلغة سيبويه في عظامي، والاثنتان تتجاوبان في فؤادي وتتركانني أحياناً منهك القوى أليف الهم والحيرة. والبلية الكبرى أني كلما حفظت لفظة جديدة عربية أنسى من الإنكليزية اثنتين وثلاثاً، فإن طال باعي في تلك قصر في هذا، وإن طال في هاتين اللغتين تستحق الإمساك والإحسان. لم يتمكن الريحاني من العربية في مطالعه لأنه سافر باكراً إلى الولايات المتحدة، فدرسها لوحده في نيويوك. وفي كتابي أمين الريحاني نصوص وآراء وأمين الريحاني مختارات ودراسات إشارة الى أخطاء لغوية وردت في بعض رسائله.

وهو يلجأ إلى السجع في بعض رسائله لا حباً به بل ليثبت سخافته وسماجته. ومن إحدى رسائله: «لا أظنك تستاء من التجريد .وحبك في القلب وطيد. وإن كنت تفضل الإلفة في ثوب الكلفة، فعندي من الحلل السندسية ما يزري بإبراد المتنبي الأرجوانية. بيد أني لا أحيكها إلا في بعض الأحايين، لأنشرها في الهواء على هشيم التوت والتين، لا لألبسها وأنا في خباء الصداقة مع المحبين. فاليد التي تميط عن الحب الحجاب، وهي غير اليد تخلع على الرسميات شماريق الثياب. وإذا أعتفيتني من اللقب وملحقاته أعفيك من التسجيع وترهاته».

وأهداه أنيس الخوري المقدسي كتابه «تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي» فكتب إليها الريحاني «جعل الله الأستاذ مصباحاً على الدوام منيراً، وأدامه للعلم صديقاً وللعرب نصيراً، عن شوق إليه شديد، وإعجاب بأدبه صحيح أكيد، وحب له لا يقاس بالقديم من

المقاييس ولا بالجديد، وأحمال من الشكر والأدعية الطيبة ينوء بها البرق والبريد. فقد وصلت الهدية، وهي كالمرآة الجلية، بيد ربة عربية، ترفع عن وجه الآداب الأستار، وتنير في دروب وضروب الإنشاء الأنوار، تستنير بها فنعلم ماءها من سرابها، وبهوها من محرابها، ومن صدق ومن مدق من أصحابها وطلابها. فلله در الأستاذ الكشاف، المعبد للعارفين جادات القياس، المسهل للمتأدبين سبل الاقتباس، الرافع أعلام العبقرية العربية لجمع الناس. وسجع الكهان، وإعجاز القرآن، والتبيين والبيان، ومعجم البلدان، والتوحيدي أبي حيان، وعلي أبي عمران، إن كتاب الأنيس كتاب نفيس، وإن جاء في صفحاته الخمسين الأولى شيء من التلبيس! والسلام عليه من الحقير الفاني».

كان موضوع كتاب الخوري المقدسي «الأساليب النثرية في الأدب العربي»، فكتب الريحاني إليه بأسلوب السجع ليثبت براعته في فن الكتابة!

المرأة

تتمتع المرأة بنصيب وافر من فكر الريحاني، يدعو إلى تحريرها وإعطائها حقوقها وتعليمها لتكون أماً مثقفة تحسن تربية أولادها. وهو كتب سنة ١٩٠٩: المدينة العظمى هي التي لا تكره فيها المرأة على الإقامة مع رجل لا تحبه ولا الرجل مع إمرأة لا يحبها. هي التي تكثر فيها الأمهات الحازمات العزومات المدركات ما سما من مقاصد الحياة، فلا يعلمن أولادهن الخرافة والكذب والمراوغة، ولا يعودنهم الطاعة العمياء والخوف. المدينة العظمى هي التي تسير النساء في أسواقها سافرات، ويحضرن الاجتماعات العمومية كالرجال، ويشاركن كالرجال في البحث والإرشاد .

رسائل الحب نادرة في رسائله العربية، ولا يذكر اسم الحبيبة. وهنا النص الكامل لرسالة كتبها من باريس سنة ١٩١١: «ما أجمل أيام الحب يا حبيبة قلبي، وما أقصرها. وما أحلى سكرات الحب، يا نور حياتي، وما أبصر صاحبها، فهو يرى ما لا يراه الناس، يرى ما لا يراه غير الآلهة. حبذا عيون الحب أنظر فيها إلى كل شيء فتريني الدنيا جنة، ولا جنات أصحاب النبوات. حبذا ساعة يعفو عنها الزمان فتبقى ونبقى لها مدى الدهر. إن يوم الحب في جبين الدهر كقوس قزح في كبد السماء، أو كبخور مريم في مخاريب الصخور بلبنان أو كالدفلى على ضفاف الأنهار أو كالورد الجوري بين الأدغال. إن حبك يا حبيبة قلبي، هو قوس قزح في سمائي، وهو العصفر في حقل نفسي، وهو الورد بين أدغال حظي. قبّلت اليوم جسدك قبلات حب هو من الأرض، من تراب بلادي. وأقبّل الليلة روحك قبلات حب هو من السماء، من سماء أحلامي. فما أجمل الحب، وما أمجده متى اشترك فيه القلب والروح والجسد. وما كان اجمل من حبّنا حب، وما كان أمجد منه، لا في الارض ولا في السماء. التقينا كما تلتقي الأمواج، وسلمنا كما يسلّم المسلمون (ونحن ندين بدين الحب) وتحدثنا كما تتحدث الآلهة، وتعانقنا كما تتعانق العرائش والأغصان، وامتزجت انفاسنا بعضها ببعض، امتزاج النور بالأزهار. كنا في عالم لم يكن فيه من البشر سوانا. أحببنا حبّ ربّين في مملكة لا حكم فيها لغير قلب واحد مركّب من قلبك وقلبي. كنت في هذه المدينة العظيمة كل ما في المدينة. سرتُ في الأسواق

وعيني لا ترى في باريسيات الجمال سواك. وما سمعت أذناي في موسيقى الخيال وموسيقى المسارح، وفي أصوات ربات السرور سوى صوت حبك. وقفتُ أمام معاهد باريس وفي متاحفها فسمعتها كلها تقول: العقل شيّدني بأيدي الحب، وزينني بأيدي الحب، وأنارني بشمس الحب، وأغناني بكنوز الحب. فما أجمل الحب وما احلاه من قلبك ومن روحك ومن جسدك. ما ألذّه من عينك ومن يدك ومن فمك ومن صدرك ومن كل ذرّة من جسمك السماوي. عدتُ في هذه الساعة إلى غرفتي، الغرفة التي قدّسها حبّنا، فقبلت الكرسي الذي كنت تجلسين عليه، وقبلت الأرض التي وطئتها حافية وقبلتُ الفراش الذي ضمخته بطيب جسدك وبأريج نفسك. وغداً صباحاً أقبل الباب الذي كنت تطرقينه بيدك الجميلة، وأهجر غرفة ملأناها حباً ونوراً وبخوراً».

في الحرب العالمية الأولى التي عانى فيها شعب لبنان من الجوع والموت كتب الريحاني سنة ١٩١٦ رسالة حث فيها همة اللبنانيين المهاجرين إلى الولايات المتحدة لمد يد العون إلى إخواتهم في لبنان: «نحييكم تحية الإخاء .أما بعد فالقصد من كتابنا أن نذكركم بالنكبة التي نكبت بها بلادنا منذ سنتين ولم تزل شاملة عاملة, تزداد شدتها يوماً فيوماً. ولا حاجة لأن نصف لكم ويلاتها وما يقاسيه أهلنا من آلام الجوع والأمراض واليأس والرعب والاضطهاد. فقد أفضت الجرائد بما يشيب الأطفال ويذيب الأكباد, من الأخبار التي أثبتها من تسنى لهم أن يهربوا أو يخرجوا من البلاد... نحن اليوم مقيمون في بلاد سعيدة, بعدين عن ويلات الحرب ونكبات الزمان . بل نحن في يُمن وإقبال , مرتاحون نأكل ونشرب وننام آمنين سعداء, وإخواننا في الوطن المنكوب يفرشون الأمراض ويلتحفون الجوع .ليلهم شديد الرعب ويومهم كثير الويلات. يموتون جوعاً في الطرقات, فهلاً ذكرنا تلك البقية الباقية هناك وخصصناهم بشيء مما رزقنا في هذا البلاد إن فلساً نبذله في سبيل الجياع يضاعفه الله ألف ضعف».

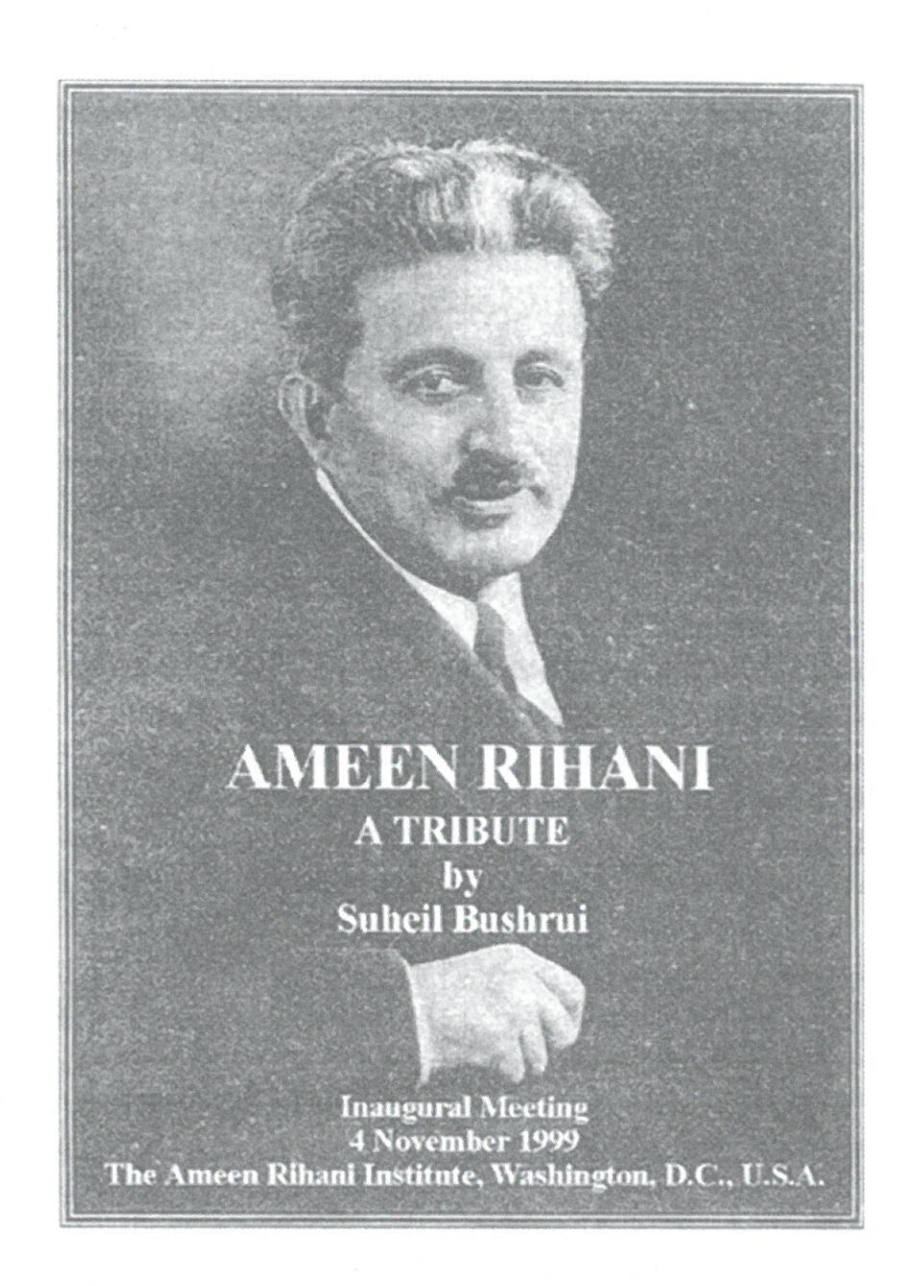
كان الريحاني يعتقد أن مساهمة السوريين المغتربين في أميركا في الحرب العالمية الأولى إلى جانب فرنسا وأميركا سيساعد على التحرر من النير التركي بعد نهاية الحرب , لذا كان يحث السوريين على الانخراط في الحرب.

وكتب إلى شكري بخاش سنة ١٩١٨: «كل بندقية أميركية أو فرنسية يحملها سوري، وإن أطلقها في فرنسا, سيسمع الأتراك دويها. وسيرون دخانها.وسيشعرون بلظى نارها... إن جهاد جنود أميركا وفرنسا وإنكلترا في سبيل الحق والحرية بل في سبيل الإنسانية لجهاد شريف.ومن شارك في سحق برابرة هذا الزمان أعظم قدراً وأسمى منزلة من أصحاب التاج والصولجان في سحق الألمان إذا هو نصر لا يوازيه نصر في التاريخ, وفضل لا يماثله فضل في الحياة.

لكنما خاب ظنه, لأن فرنسا وإنكلترا (صاحبة وعد بلفور سنة ١٩١٧) لم تمنحا الدولة العربية استقلالها بل انتداباً واستعماراً وجاءت بإسرائيل زرعتها في الأمة العربية شوكة في خاصرتها وجسماً سرطانياً يهدد مصيرها.

الوحدة العربية

كان الريحاني متحمساً لقيام وحدة تضم الدول العربية على شاكلة الولايات الأميركية المتحدة. وفي هذا كتب «أن أخي لبناني



وماروني بعد ذلك، وإني ممن يعتقدون أن الاتحاد سياسياً بين العناصر المختلفة ديناً، ممكن إن لم يكن اليوم ففي المستقبل القريب. هذا إذا كانت الدول الأوروبية، وفي مقدمتها إنكلترا وفرنسا، تريد حقاً خيرنا، فلا تثبتن بسياستها شقاقاً فينا أوجده الأتراك. أما رأيي وقد تحسبه حلماً، فهو إذا اتحدت العناصر سياسياً يمهد السبيل إلى اتحاد الولايات العربية التي منها سوريا ولبنان وفلسطين. وإذا اتحدت هذه الولايات فخير حكومة تكفل المساواة بينها هي حكومة جمهورية على شكل حكومة سويسرا، ينتخب رئيسها مناوبة من المجلس التنفيذي الأعلى مرة كل سنة، فيصيب كل عضو منه نصيباً من الرئاسة يرضي العناصر والولايات كلها. والمجلس الأعلى يتألف رؤساء الولايات أو من مندوب تنتخبه».

ويحذر الريحاني من تدخل الدول الإستعمارية (بريطانيا وفرنسا خاصة) لتقسيم البلاد العربية دوائر نفوذ لها. ويحذر اللبنانيين من أن يظلوا منقسمين كل طائفة تستقوي بدولة أوروبية تحميها «فنظل ، كما كنا في الماضي المظلم، الموارنة منا فرنسيون، والبروتستانت أميركان، والمسلمون عثمانيون، والورم روسيون، وليس من أحد فينا حقاً سوري، لبناني فلسطيني، عربي. أفترى الحق في جانبي والصواب في قولي؟ إني لبناني عربي ثم ماروني بعد ذلك». ومن رسالة سنة ١٩٢٠ إلى الأمير فيصل (الملك فيصل الأول) كتب أن لا خلاص للأمة العربية إلا بالوحدة: «اعتقادي بالوحدة العربية ثابت على الدوام.لا يغيرني سوء عمل، ولا تثبطني خيبة أمل. فإن حلماً تحلمه الأمة في يقظة من يقظاتها لتحققه الأيام ولو بعد مئة عام. وإن إيماني بالناشئة العربية الجديدة لعظيم. ولطالما كتبتُ في الثورة العربية والنهضة العربية ما يجلو الأجانب حقيقة حالنا وجميل آمالنا. وأنتم، مولاي، سيف تلك الثورة وترس تلك النهضة.فهل ننساكم اليوم لأن السياسة الأوروبية عبثت بآمالنا الوطنية؟ أنا ممن لا ينسون ولا ينقلبون. على أني، ولا أكتمكم، أميل إلى الأخذ بالعلم في نشوة الأمم بالسياسة».

وكتب سنة ١٩٢٤ رسالة إلى السلطان عبد العزيز ملك السعودية دافع فيها عن إخلاصه للعروبة: «إني أكثر إخلاصاً لكم من كثيرين من المسلمين، وأشد غيرة على خير هذه الأمة العربية من كثير من إخوانه العرب. يشهد الله وسيشهد التاريخ على ما أقل. إي مولاي، إني رجل عربي ساقة الله إليكم ليخدمكم ويخدم العرب فانتفعوا بي قبل أن يأذن الله بالرحيل. ويذكر له حاجة الأمة العربية إلى السلم : الأمة العربية في حاجة إلى من يقرّب القلوب بعضها من بعض، فيضمد جروحها ويقويها، ويوطد آمالها ويكون أميرها وزعيمها. الرأي قبل الشجاعة الشجعان، والعروبة الحقة رأس كل رأي عربي سليم. إي مولاي، عبد العزيز، إن الدماء التي قد تسفك غداً في جدة كانت أو في صداء لهي دماء عربية زكية. والفضل كل الفضل لرب السيف الذي يغمد سيفه اليوم في سبيل السلم والوفاق، بل في سبيل الحلف العربي، وصالح الأمة العربية جمعاء، وأنتم إلى ذلك موفقون، إن شاء الله. صديقكم المخلص».

ودعا دائما إلى وحدة الدول العربية، شرط أن تقوم على الوطنية الصادقة والعلم والتطور: خير لنا أن نسعى في ترقية أمتنا على الطريق الحديثة العلمية الاجتماعية فنخلصها

رويداً رويداً من الجهل والتعصب وسوء الأخلاق من أن نحضها على الأمة أو تلك الحكومة. خير لنا أن نشغل في جمع كلمتنا وتوحيد نزاعاتنا من أن نطعن خصومنا ونحمل حملات كتابية على أعدائنا.

وفي رسالة الى الملك عبد العزيز سنة ١٩٣٠: «لا خلاص لهذه الأمة بغير الاتحاد ولا يجدد مجدها غير العلم وهو كان في الماضي أساس مجدها. قلت ذلك مراراً وتكراراً في الكتب والمجلات وعلى المنابر العربية والإنكليزية في سوريا وفي لندن وفي هذه البلاد الأميركية. قلتُه وكتبتهُ مراراً وتكراراً، وسأقوله وأكتبه إلى أن يطفئ الله نور الحياة، وعسى قبل ذلك أن يحقق بكم يا طويل العمر ما نحن ننشده».

الدين

للريحاني موقف من الدين منفتحٌ غير متزمّت. جاء في رسالة له الى محمد كرد علي: «إني لأحزن عندما أقرأ في الصحف أخباراً عن جمود المسلمين وفتورهم، وأفكر في مثل هذه المواقف فيك وفي إخوانك القلائل العاملين على رد الدين إلى طهارته الأصلية، الباذلين مهجهم في سبيل العلم الصحيح والحرية الحقيقية. فسلام عليك من أخ لك في الرأي والجهاد. وإن روحي تصبو دائماً إلى روحك وروح أمثالك من المسلمين، وأتمنى لك التوفيق الذي يستحقه علمك وأدبك وودادك».

ومن رسالة أخرى: «بلية سورية أديانها، وبلية الأديان أربابها. وأنت ممن أدركوا هذه الحقيقة الأولية. فإذا شكونا الأديان وعوامل التفرقة فيها، لا ننفي وجوب الدين ووجوده. ولكن الدين في السياسة لا يأتي لغير الفساد والخراب والموت، وعلينا أن نبعده عن السياسة ونبعد السياسة عنه.والذين يسعون هذا السعي الجميل في الطائفتين يلقون الويل لا شك، لكن سعيهم لا يذهب أدراج الرياح. المسلم في سوريا لا يحفظ كيانه بغير المسيحي، والمسيحي لا ينهض بغير المسلم. وعندي، بعد أن فازت الدولة فوزها الأخير في استرجاع أدرنة وقرقله، أن خير السياسات ومثلها اليوم أن نقطع مخابراتنا مع الباب العالي. ونداوم العمل على تثبيت جامعتنا الجديدة، الجامعة السورية الإسلامية المسيحية. الثورة. لا يخلصنا غير الثورة، اليوم أو بعد خمسين سنة. وأنا ممن يبشرون بها ويمهدون سبيلها ويقدسون الوحدة القومية».

وينتقد موقف مجلس الحسبة في مصر لإصداره حكماً غيابياً على مي زيادة التي تعرضت إلى ظلم كبير من نسيب لها، طامع بالاستيلاء على ممتلكاتها، طالب بالحجز مدعياً أنها لا تملك قواها العقلية. وبهذا كتب إلى فيليكس فارس في مصر: «المستغرب في كل ما قاسته من الظلم والاضطهاد هو الحكم الغيابي الذي أصدره مجلس الحسبة بمصر. كيف يحكم المجلس الموقر بالحجز على شخص غائب بدون أن يتثبت حقيقة حاله العقلية؟ يظهر أن عندكم ما عندنا-كتباً كثيرة دينية وقانونية وقلة دين!».

فلسطين

دافع الريحاني عن فلسطين في خطبه وكتاباته في البلدان العربية وخصوصاً في الولايات المتحدة. سنة ١٩٢٧ كتب إلى عيسى العيسى صاحب جريدة «فلسطين» أن مصالح الوطن تضيع في تطاحن النشاشيبية والحسينية. لذلك يدعوهما إلى الاتحاد

لمحاربة الصهيونية بدلاً من محاربة بعضهما البعض (وهو ما زال قائماً حتى اليوم في فلسطين من تنافس أحزاب وفصائل وتنظيمات تتصارع على السلطة).

سنة ١٩٣٧ يكتب من أميركا إلى شقيقه ألبرت الريحاني أنه قطع نحو ألف ميل في ثلاثة أيام ليدافع عن حقوق العرب في فلسطين، وألقى محاضرات من مدينة إلى أخرى، وقارع الحاخامين اليهود والصهاينة الذين يدعون بأن فلسطين دولتهم. وكتب سنة ١٩٣٨ إلى المجاهد الأكبر محمد علي الطاهر يخبره عما يقوم به في سبيل فلسطين: الحق لا يموت ما دام قلم ينصره، وبندقية تدافع عنه. حي الله من حمل بندقية ، وكل من حمل قلماً ، وكل من رفع صوتاً، وكل من دفع غرشاً ، وكل من حرك ساكناً في سبيل فلسطين، في سبيل الحق والعروبة الفلسطينية. وكتب سنة ١٩٣٩ من نيويورك الى نوري السعيد يلفته الى ما يفعله الصهاينة في أميركا من دعاية لإنشاء دولتهم في فلسطين: «إنهم هنا حركة دائمة وضجة مستمرة. في الجرائد، في الأندية، في المعابد، وفي دوائر الحكومة. الحكومة الأميركية موالية لهم على كره، والحكومة الإنكليزية تتقرب من الحكومة الأميركية لا إكراماً للصهاينة بل رغبة في التعاون لتسهيل مشاكلها في أوروبا وتعزيز مصالحها في الشرق الأدنى. أميركا وإنكلترا متحدتان في قضية فلسطين – متحدتان على العرب».

سنة ١٩٣٨ كتب إلى الملك السعودي عبد العزيز بن سعود والملك غازي الأول ملك العراق والملك فاروق الأول ملك مصر والإمام يحيى ملك اليمن عن قضية فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل بعشر سنوات يشرح فيها بطلان الادعاء الصهيوني في فلسطين ويدافع عن حق العرب الوطني والقومي والتاريخي والقانوني في فلسطين. وفي ختام الرسالة يستحث همم الملوك العرب «إني على يقين أنكم تستطيعون أن تدفعوا اليوم عن إخواننا عرب فلسطين، الظلم الأكبر والشر الأنكر وتخلصوا في الوقت نفسه الحكومة البريطانية من المأزق الحرج التي هي فيه. فباسم عرب فلسطين بل باسم العرب في كل مكان، بل باسم الإنسانية وباسم العدل المؤسس على التعهدات الدولية، وباسم السلام والوئام اللذين ننشدهما لعرب فلسطين بل للعرب أجمعين، اسألكم أن تقدموا على هذا العمل الشريف الذي يسجله لكم التاريخ ببراعة الإعجاب والثناء».

قلب العراق

سنة ١٩٣٥ صدر كتاب 'قلب العراق' بعد لجوئه إليه هرباً من حكم الانتداب الفرنسي للبنان. ولفت فيه الى أن البعثات الأوروبية للتنقيب عن آثار العراق تسرق آثاره العراق لا يخسر إذا توقفت أعمال البعثات الأثرية، ريثما ترسل الحكومة العراقية طلبة لدرس علم الآثار في أوروبا وأميركا. خير للعراق أن تبقى آثاره مدفونة في أرضه من أن تطير إلى وراء البحار. لكن ذلك لم يرق لرجال الحكم في العراق فصادروا الكتاب الذي يدافع فيه عن تراثهم وآثارهم، وكتب الى رستم حيدر (لبناني وزير في الحكومة العراقية) يبدي استغرابه وهو المدافع عن مصالح العراق، وطلب منه نقل شكواه إلى جلالة الملك: يحزنني أن يصادر الكتاب لأني لم أرض فيه بعض السياسيين. لا أدري من منهم المستاء ومن الراضي. وأنا في خمس وثلاثين سنة من الكتابة ما تعمدت مرة إرضاء الناس أو الإساءة

إلى أحد من الناس. الانتقاء من حقي وهو من أركان أدبي ووطنيتي. أفلم أنتقد السعيد الذكر الملك فيصل؟ فهل صادر فيصل أو حكومة فيصل كتابي ملوك العرب؟. أو لم انتقد الزيود والإمام يحيى وإخوانه نجد؟ هل أمر الإمام يحيى بمصادرة كتابي وهل منع الملك عبد العزيز دخول الكتاب إلى نجد والحجاز؟

وفي رسالة إلى محمد رضا الشبيبي سنة ١٩٢٣ «أحب بلادكم، يا صديقي، يا شيخ رضا. أحب كل قطر من الأقطار العربية حباً كثيراً. ولو عشت مائتي عام لقضيتها ساعياً في سبيل هذه الأمة علنا نخرج بها من سراديب الظلمة إلى مروج العلم والحرية ولو بعد مئة عام وعلينا أن نسعى قصرت الحياة أو طالت».

الظرف

في بعض الرسائل تهكم ودعابة وفكاهة. تسلم الريحاني رسالة من فرانك دايفس السماك الأميركي الذي يبيع الأسماك والسلاطعين دون وسيط إلى جميع أنحاء العالم، يعرض عليه سلاطعينه وهو في الفريكة، ثمنها دولاران وخمسة وتسعون سنتاً. استغرب هذا الاهتمام من رجل غريب يبعد عنه آلاف الأميال.

فكتب إليه: «إذا كنت صاحب فتلة ، فالذي أعطاك اسمي وعنواني هو كذلك، وانا في كتابي إليك الآن أخ لكما. ولكن كثيراً مما فيه الخير والسرور للناس هو من فضل مفتولي العقول». وعرض عليه مقايضة الثمن برطلين من التين الناشف المنتقي من ثمار بستانه في الفريكة. قبل الرجل المقايضة وأرسل له سلاطعينه موضبة في علب بالبريد، واستلم من الريحاني رطلين من التين الناشف ونسخة من أحد كتبه بالإنكليزية. وتمت الصفقة، لا «حديد بقضامي» بل «سلاطعين بتين». وكتب إلى سامي الكيالي يشكو زكاماً ألم به: «وما أدراك ما الرشح عندي؟ إني وربك أفضل عليه الهواء الأصفر الذي يتعتعك ثلاثة أيام ثم يقذف بك من هذه الفانية إلى تلك الأبدية. الرشح يعبث بك أسبوعاً، ثم يزدريك أسبوعاً، ثم يعود بك صاغراً إلى الحياة. الرشح أيها الحبيب النجيب، خبيث لئيم جبان وبعد ذلك بليد ثقيل مزعج مكرب مقرف معاً. الرشح لا يجرؤ أن يقتلك، ولا أن يمسك بضرر. لكنه يوقفك، يؤخرك، يقعدك، يرمي بك إلى الفراش، جالس على صدرك أو واقف تحت أنفك بل فيه يتفرج عليك. ويبصق، يا للعار ويا للذل، في شاربيك. وهل تستطيع أن تصفع اللئيم وهو محصن في الأنف الكريم؟ لهذا الرشح عندي مزية أخرى خبيثة ذميمة . بل هي مما يدعى في دساتير الأمم خيانة وطنية كبرى. العالم في أشد حاجة اليوم إلى المضحكات، وشر البلية – بليتي أنا بنفسي وبأحبائي وأصحاب المجلات والجرائد – ما يضحك».

وكتب على لسان غليونه رسالة إلى صديق طالباً منه تبغاً أميركياً للغليون لأنه «مشتاق إلى قبلة من قبلاته، وفي قلبه حنين إلى امتزاج أنفاسه النيكوتينية بأنفاسه المسكية. وإن الفم في الفم، يذكي الدم، والمصة تزيل الغصة. حقق الله أماني محسوبكم . التوقيع: غليون الريحاني».

الفريكة، أو "قلب لبنان".

هي سيدة هذه الرسائل. أغلبها صادرة عنها، الريحاني متعلق بها لا يعيش بعيداً عنها إلا مرغماً. إذا ابتعد عنها يعيده الشوق إليها. في الفريكة يطيب له العيش حيث الطبيعة

الخلابة والمناظر البديعة والتلال والأودية والنسيم العليل وسكينة يتوق إليها يختلي مع نفسه في الطبيعة.

كان يستضيف أصدقاءه إلى الفريكة يمضون أياماً بصحبته. وهو يتغزل بلياليها المقمرة ومشاهدة أخلية الغيوم على الجبال. ويهدي بعض أصحابه سلاماً «أرق وألطف من زهر الزعفران الذي ينبت في جبال لبنان، وأزكى من زنبق وادي الفريكة ومن نرجستها». ولا ينسى زهر اللوز وشذا الياسمين. والريحاني عاشق الطبيعة: «ساعة واحدة في وادي الفريكة خير من أشهر في ظل الحديث. ساعة واحدة من فيئ الصنوبر فوق نهر الكلب بين صخور الوطن وأدغاله خير من سنين في المدن المزدحمة بالجوع الملتحمة تحت سماء سوداء، لا كوكب فيها للحب والرحمة».

وفي رسالة إلى مي زيادة أثناء محنتها: «نُحييك تحية شذاها زنابق الوادي، وحرارتها من شمس هذا الجبل».

ومن رسالة إلى داود بركات «عدت من الحجاز الذي لا ترى زهرة فيه، ولا أخضر في بواديه، إلى لبنان الذي لا يزول اخضراره ولا تذبل أزهاره».

ومن رسالة إلى ماري يني: «حبك كزنبق الوادي، وصداقتك كصنوبرة الجبال، نفخ الأول لا يزول واخضرار الثاني لا يحول».

وكتب إلى الملك فيصل سنة ١٩٣٣: «يوم شرفني كتابكم كانت الفريكة وما حولها من الجبال بيضاء ناصعة لكثرة ما تساقط في اليوم السابق من الثلج. وكان الجو مع ذلك مشرقاً صافي الأديم .وجاء كتابكم الكريم يضفي على قلبي ضعف ما أضفاه مشهد الثلج والشمس من السرور والابتهاج».

هذا هو الريحاني، كما تتجلى في رسائله شخصيته وآراؤه ودفاعه عن حرية القول والتعبير.

* * *

